

صور سياحة

١ - فرنسا وباريس

بقلم سائح متجول

تأثرت مصر بالثقافة الفرنسية طوال القرن الماضي ؛ ولم يكن ذلك لأن مصر أمة من أم البحر الأبيض تميل بمخاوصها وموقعها إلى الأخذ بالثقافة اللاتينية ، ولكن لأن ظروفها خاصة اجتمعت منذ الغزوة البونابرتية لتحمل مصر فيما بعد على الاستعانة بالفرنسيين في مشروعات الإصلاح والتجديد وإرسال بعوثها العلمية الأولى إلى فرنسا . هذا هو الأصل في تأثر مصر بالثقافة الفرنسية ، وهو عارض تاريخي محض ، لا دخل فيه للموامل الجغرافية أو الميول والخواص الجنسية ؛ ومن ثم فافازرى أثر الثقافة الفرنسية في مصر بضمحل اليوم ، لأن مصر تختار اليوم لنفسها من مختلف الثقافات ، لتبني ثقافتها القومية ، ولا تتف عند ثقافة دون أخرى

ومع ذلك فإزال الثقافة والآداب الفرنسية تحظى منا بأكبر عناية ؛ وما تزال فرنسا تجذب منا أكبر عدد من الزائرين ؛ وما يزال اسم باريس يثير في نفوسنا سحرا لا يقاوم ؛ بل إن كثيرا من أولئك الذين لم يروا باريس يعرفونها معرفة عقلية وروحية شاملة ؛ يعرفونها من الكتب والصحف والسينما ، وترتبطهم بها روابط فكرية قوية ؛ وما تزال أول أمنية للسائح المبتدى أن يرى باريس

وقد حظيت باريس من العرية بكتب ورسائل عديدة ، وحظيت في العهد الأخير بكتابين لاثنين من كتابنا المروفين ، وصفت فيهما معاهدها ومعانيها وجوانب كثيرة من حياتها الاجتماعية ، وانك لتقرأ في الكتائين فصولا وشذورا تفيض انجاسا بفرنسا وباريس وكل ما هو فرنسي ، بل إنك لتشعر من خلال تلك الفصول الحارة النتمة أن فرنسا هي أمة الأم ، وأن باريس هي مدينة المدن وإلهة الجلال والدلوم والفنون ؛ وما زالت هذه الألوان الوردية المفرقة تطبع كل ما نكتب عن فرنسا وباريس على أنه يلوح لنا أن هذه الفتنة التي قد تجعد مبرراتها في بعض المؤثرات والظروف الخاصة ، والتي تثيرها في معظم الأحيان

يقتلها النظما وهي تحمل الماء على ظهورها في القرب ؟ أو كالحمار الذي يحمل أسفارا ؟ ؟ . »

ومددت يدي إلى الكيس وأنا يقظان كناهم ، وتناولت منه من غير أن أنظر إليه : وطابت الجوافة في في ، فأقبلت عليها آكل وآكل - ولكن بغير احتفال والله - وإذا بصاحبتنا تدخل مؤهلة مرحبة بأسطة يديها للسلام ، ثم إذا بها تقف في وسط الغرفة الفسيحة وعينها مفتوحة جدا على ، فلم أستغرب ، فقد كان في عمشوا وأسنانى تعمل دائبة كالليل والنهار . وتنبت إلى واجبي حين رأيتها تحملق على هذا النحو ، فباتت ما بقى في في بسرعة ، ومططت عنق ليسهل الانزلاق - أعنى البلع - وانحنيت على الكيس لأتناوله وأقدمه إليها وأسرها به - أعنى بالجوافة التي فيه - وإذا به يتعلق بين يدي لأنه فارغ !!

الحق أقول إنى بهت ، فما كان يختر لي في بال أن آكل كل هذه الجوافة . ولو أن إنسانا راهنى أن أفضل لفزعت وأشفقت على نفسي ، ولكن هذا الذي لم أكن أحسب أن لي قدرة عليه وقع اتفاقا . . . وقد سرني هذا في الحقيقة لأنه كان من بواعث الاطمئنان لي على صحى ، وكان جديرا بها أن نهتنى وتفرح لي ، فان الجوافة كثيرة وهي في السوق أكوام عظيمة ، والجيد الطيب ليس بالقليل ، وعنه شىء فافه لا يستحق الذكر . . . ولكنهما وجت يا أخى لا أدري لماذا ؟ ووقفت جامدة لا تتحرك كأنما سمعت إلى الأرض ، فأزهجت ذلك وخفت أن يكون قد أصابها شىء لا قدر الله ، وأقبلت عليها أسألها عما جرى لها ؛ فلما أفقت أشارت يديها - دون أن تتكلم - أنت اذهب . . . اذهب ولا تترني وجهك ؛ فاستغربت أن تلقانى بهذه الجفوة بعد ذلك الترحيب والتأهيل والبشر الذى كان يفيض به وجهها وهي مطلة به من زين مصراعى الباب ، وتمنيت لو أنها تبقى أبداً ووجهها بين المصراعين ليق لي بفرها وحلاوة ابتسامها !!

الحق أنى لا أفهم النساء وهل تستطيع أنت أن تفهم كيف يفسد الحال وتقع النبوة بين رجل وامرأة من أجل أفة من الجوافة ثمنها قرش ونصف قرش ؟ إن كنت تفهم هذا فاني أحمدك وأدموك بالتوفيق إن شاء الله

ابراهيم هبر القادر المازنى

شراء يتراوح بين فرنك ونصف وثلاثة حسب النوع والحجم ؛
وأما في المقهى فما خلا القهوة والنيذ والكوكيناك والبيرة ، فإن
أثمان المشروبات الأجنبية تبلغ حدوداً تزهك دأعماً في طلبها ؛
والسجائر الفرنسية رخيصة ولكنها سخيصة لا يقبلها الذوق ،
والسجائر الأجنبية تكلف ضعف ثمنها وأحياناً ثلاثة أمثال ؛
وأما التنقل في مدينة عظيمة كباريس فلست أحدثك عن
« التاكسي » لأنه ترف لا يطيقه سوى الأغنياء ، ولكنني أقول
إن أجور الأمتنيوس والترام الذي بقيت منه خطوط قليلة هي
الضعف وأحياناً ثلاثة أمثال أجورها التي نعرفها هنا ؛ ولولا شبكة
الترام الأرضي (المتروبولتان) التي تربط أحياء باريس وأطرافها
ربطاً جيماً بأجر زهيد (سبعين سنتياً أو نحو قرش صالح)
لكانت باريس أتمس العواصم من حيث المواصلات

هذه أمثلة وملاحظات نمنى بها السائح المتوسط ولا نمنى
بها طبقة الطلبة أو أولئك الذين يلجأون إلى بعض الفنادق الشعبية
الرخيصة حول الحى الجامعى في سان ميشيل وفوجيرار ، ويتناولون
طعامهم في مطاعم الهال ، فهؤلاء حقاً يستطيعون أن يستمتروا
نوعاً من العيش الرخيص لا يستميسغه السائح المتجول مهما كان
من تواضعه وقناعته

ولا تنس إلى جانب ذلك الغلاء المهرق تلك الضريبة التصفية
التي أصبحت رذيلة اجتماعية شنيعة في فرنسا (وفي غيرها أيضاً)
ونعى « البقشيش » ، ففي كل مكان وفي كل مناسبة ، في التاكسي
وفي المطعم والمقهى والمسرح وأينما حللت ، يمثل شبح البقشيش ،
ويطلب بالبحاح خشن ؛ وكل شيء يتطلب عطية حتى ولو لم تقدم
أبه خدمة ؛ والشراء خلة بارزة لتلك الطبقة التي تحمك بها في كل
لحظة ونمنى طبقة الخدم والسقاء ؛ وروح الجشع تبدو في كل
مكان ؛ وقد تدخل المسرح أو الملهى الواحد فيطلب اليك البقشيش
أربعة أو خمسة متعاقبون من الخدم قبل أن تجلس في موضعك ،
وإذا ترددت قيل لك إنا هنا لا نتناول أجراً ونمتد على البقشيش ،
وإذا لم تتذرع بشيء من الحزم والبرود كانت الخسارة فادحة ؛
هذا إلى المفاجآت السيئة في الحساب ؛ ففي معظم الأحيان تدفع أكثر
مما تتوقع لأسباب وأبواب غير معقولة ولكن لا مفر من إجابتها
ولقد قيل في يونيه الماضى إن البرلمان الفرنسى قد أقر قانوناً
بالبقاء « البقشيش » ، وقد صدر القانون فعلاً ، ولكننا أسأنا فهمه
وإدراك مقصده ، فلم يكن قصد الحكومة الاشتراكية أن تحرم

أهواء وميول خاصة ، وبذلكها الجهل بأحوال الأمم والعواصم
الأخرى ، وانعدام روح المقارنة الذى تتضاهل أمامه الصور
والألوان الخلابية ؛ بلوح لنا أنها فتنة مبالغ فيها ، وأن شيئاً من
الملاحظة البريئة ، وقليلاً من الاتزان في الوصف والرواية ،
وطرح المؤثرات والاعتبارات الخاصة مما يماون على عرض صور
أصدق وأدق من تلك الصور الوردية التي عرفناها وأغناها

ومهما يكن في هذه الصور القديمة من صدق ؛ ومهما يكن
لهذه الفتنة القديمة من مبررات ، فأنا نقول لأولئك الذين يرون
العالم كله في فرنسا وفي باريس : إن الأمور قد تغيرت أعظم تغير
في فرنسا وفي باريس

وكانت هذه السطور سائح متجول يرى ويلاحظ ، ولكنه
لا يدعى الومسول إلى المجهول والخارق ، وإنما يلاحظ ويقدر ما تهدى
إليه الشاهدة والتجارب بعيداً عن كل اعتبار وهوى

لم تقدم فرنسا أية تسهيلات للسياحة سواء في مسألة النقد
أو السكك الحديدية أو الفنادق أو غيرها كما فعلت ألمانيا وإيطاليا ،
وما زالت تعتمد على جاذبيتها القديمة ؛ غير أن فرنسا تخدع اليوم
في قيمة هذه الجاذبية ؛ وقد انحط موسم السياحة في فرنسا
انحطاطاً عظيماً ، ولم تعد باريس كما كانت في الماضى تعج بمشترات
الألوف من الأجانب ولا سيما الأمريكيين والانكليز ؛ وأهم عامل
في هذا التحول هو ارتفاع قيمة الفرنك الفرنسى بالنسبة لنقد
البلاد التي خرجت عن معيار الذهب . فالأمريكى أو الانكليزى
أو المصرى الذى يزور فرنسا يفقد نحو أربعين فى المائة من
قيمة نقده ؛ أضف إلى ذلك الغلاء الفاحش الذى يفر كل شيء
في فرنسا ؛ ففي الفندق والمطعم والمقهى ، وفي اللامى والتنقل
وكل ما يتصل بالحياة اليومية ، نشعر بوطأة هذا الغلاء المهرق ،
وتشعر كأن النقد يذوب بين يديك سراعاً

ولنضرب أمثلة مادية ؛ فالغرفة البسيطة في فندق متوسط
تكلف في اليوم من ٢٥ إلى ٤٠ فرنكاً^(١) (من ٣٣ إلى ٥٢ قرشاً)
ووجبة الطعام في مطعم متوسط تكلف من ١٥ - ٢٥ فرنكاً
(٢٠ - ٣٣ قرشاً) هذا عدا الخدمة وهي من ١٠ إلى ١٥ فى المائة ؛
وثن البيضة الواحدة في المقهى أو حيث تتناول إفطارك فرنكان
ونصف (٣٥ قروش) وثن الواحدة من الموز أو التفاح أو الخوخ

وآدابها ، فالعامل والصانع والبائع والخادم والموظف الصغير ، هؤلاء جميعاً يتصورون أنهم سادة الموقف في فرنسا ، وأن المستقبل لهم . وإنك لتلاحظ هذا الأثر السيئ بنوع خاص في طبقة العمال والخدم ، فهم يؤدون أعمالهم بتكلف ولا يحفلون بشيء ؛ وهم يشعرونك دائماً عند الحديث أنهم سادة مثلك ، ولهم في ذلك إشارات وألفاظ وحق . وقد كان لحوادث أسبانيا في هذه الطبقات أثر عميق ملموس ؛ وكم سمعنا في الفندق والمطعم وفي الشارع والمترو من بعض أفراد هذه الطبقات أن الحكومة الاشتراكية إذا لم تجب مطالب الطبقات العاملة ، وإذا لم تسع إلى تحسين الأجور وتخفيض مستوى المعيشة ، فإن ما وقع في أسبانيا سوف يقع قريباً في فرنسا

وقد عرفت فرنسا أنها بلد الجدل السياسي ؛ ولكن هذا الجدل يحتمد اليوم في فرنسا بشدة ظاهرة ويفخر كل الطبقات ؛ وقد تشهد هذا الجدل في الشارع وفي اللقبي وفي الترام ، وتسمع أعرب الآراء وأشدها تطرفاً . وتلقى الصحف على اختلاف نزعاتها رواجاً عظيماً بين كل الطبقات ، وتلقى الصحف والنشرات الاشتراكية رواجاً خاصاً بين الطبقات العاملة . وقد لفت نظري كتابان بمرضان للبيع بكثرة ويقبل الناس على شرائهما ، أولهما رسالة عن حياة مسيو « ليون بلوم » رئيس الوزارة الفرنسية الحاضرة ، والثاني كتاب عنوانه « دوربو رجل الغد » ، ودوربو هو النائب الشيوعي الذي خرج على الحزب الشيوعي وعلى أوامر موسكو وكون لنفسه شعبة خاصة تتقدم كل يوم في الأهمية والعدد ؛ ويرى كثيرون أن دوربو هذا سيكون من قادة الغد ، وأنه ربما اضطلع بدور عظيم في التطورات السياسية المقبلة

ومما يلفت النظر بنوع خاص حالة القلق السياسي التي تسود فرنسا اليوم ، وتبدو ظاهرة في كتابات الصحف وفي تطبيقات الأفراد ، ويشمل هذا القلق الشؤون الداخلية والخارجية معاً ؛ ففي ميدان الشؤون الداخلية يشعر الكثيرون بأن فرنسا مقبلة على تطورات سياسة هامة ، وأنه ربما اقترنت هذه التطورات بشيء من العنف . وفي ميدان الشؤون الخارجية يرى الكثيرون أن احتمالات الحرب الأوروبية تتقدم بسرعة ، وأن نشوبها ربما كان أقرب مما يتصور الناس ، وأن فرنسا ستدعى في القريب العاجل إلى خوضها

الخدمة ومن إليهم من نعم هذه الضريبة الرذولة ، بل كان قصدها أن تجعل « البقشيش » حقاً وضريبة مشروعة لا عطية فقط ، وأن تحفظ كرامة هذا الخادم أو العامل فلا ينتظر البقشيش كعطية أو نفحة وإنما يرى فيه حقاً مكتسباً ينظم دفعه حسب الظروف والأحوال ؛ ولهذا كان أول ما قرأنا في تعليقات الفندق في مرسيليا ما يأتي : « بما أن البقشيش قد ألتى ، فقد قررت إدارة الفندق أن تحتسب بدل خدمة قدره عشرة في المائة ! »

ومما يلاحظه السائح في فرنسا ، وفي باريس بنوع خاص ، أن الأمانة في المعاملات ليست متوفرة دائماً ؛ وربما كان أول وأشهر التجارب التي يلاقها السائح في ذلك هي مسألة التاكسي ؛ فإذا لم تكن تعرف الطريق أولك فكرة عنه فويل لك من السائق ؛ وقلما تجد سائقاً يقودك إلى المكان المقصود مباشرة ، ولا بد أن يطوف بك حيناً قبل أن يقودك إليه ، وهنك تلاحظ أو تعترض ، وعند الحساب تضاف إلى الأجر ملحقات زائفة يؤيدها السائق بالصنخ والوعيد ؛ والويل لك إذا ترددت في الدفع ؛ وهذه تجربة أعتقد أن كل سائح مستجد يلقاها في فرنسا ؛ وقد بلوتها غير مرة وسمعت في شأنها روايات مدهشة مضحكة معاً عن تفنن السائقين في إبراز اللحقات غير المشروعة . وإنك لتلقى مثل هذا النفس أحياناً في المطعم والمقهى إذا لم تحسن مراجعة الحساب ؛ ومن الحق أن تقول إنك تائق مثل هذه التجارب في غير فرنسا ، وإنك تلقاها في إيطاليا وباقي أمم البحر الأبيض ، ولكن يندر أن تلقاها في أمة من الأمم الشمالية

وحب المال خلة مشهورة في فرنسا ، وهي تذهب إلى حد الجشع الثير ، وإنك لتلمس هذا الشره في كل المعاملات ، وتشعر بأن روح السادة والاستغلال تطغى على كل شيء وكل اعتبار ، ومن ثم كان شغف الكسب بأى الوسائل ، وكان يجلي الأثرة وانعدام روح المعاونة والرؤية في معظم الطبقات التي تحتك بها . ومن النادر أن تجد في باريس من يتقدم لمعاونتك أو إرشادك لمعرفة مكان أو غيره بشيء من التطوع أو الرقة التي تأنسها في بلاد أوربية أخرى ؛ وإذا قدم إليك مثل هذا العون شمعت أنه مقرون بالسرعة والمن ، وأحياناً بالتكلف والجفاء ، كأن وقت الفرنسي كله وكله كله من ذهب ؛ وكثيراً ما تجاب بهز الأكتاف « ليس عندي وقت » وأمثالها

هذا وقد أفسدت الروح الاشتراكية أخلاق الطبقات الدنيا